مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

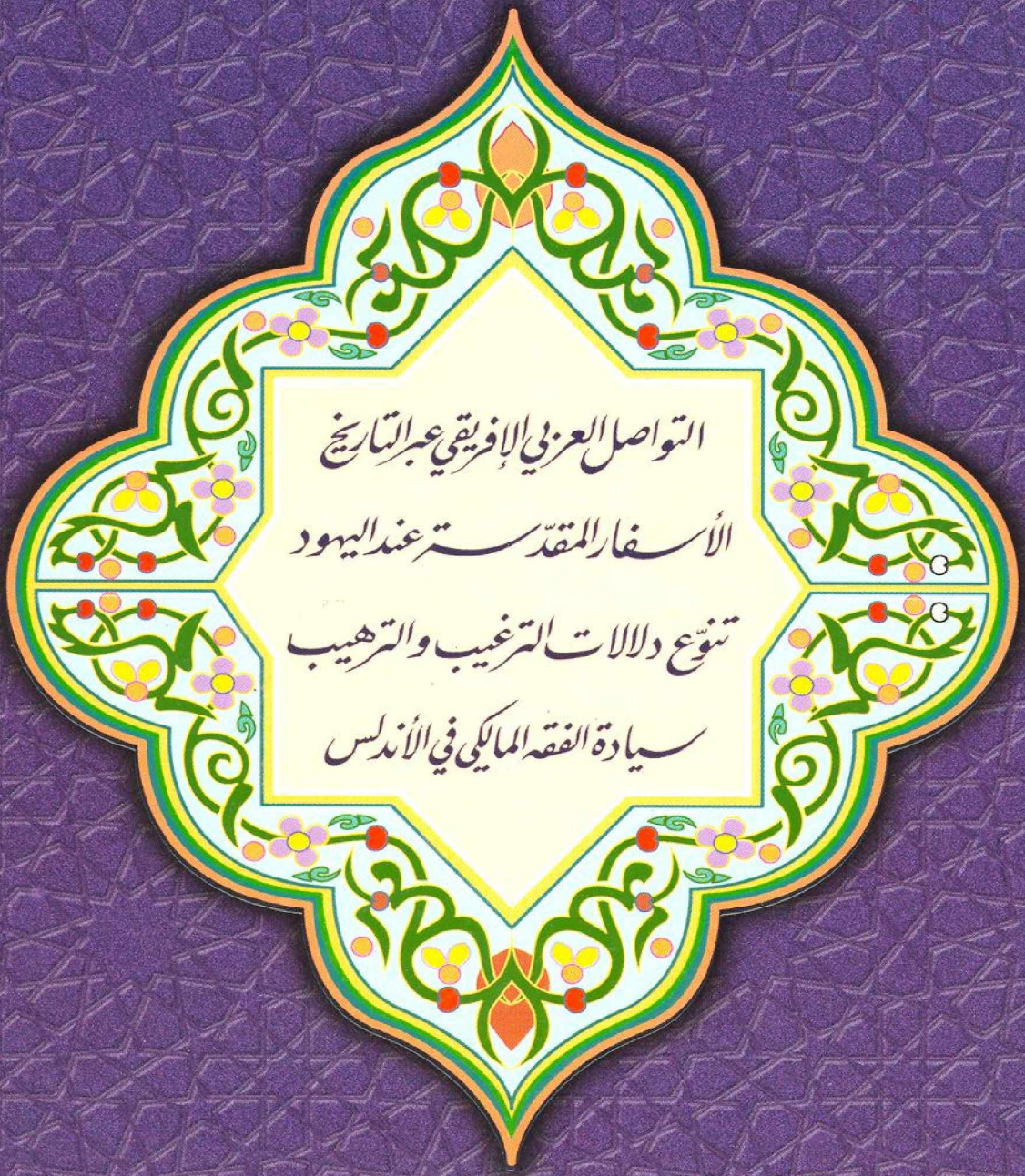

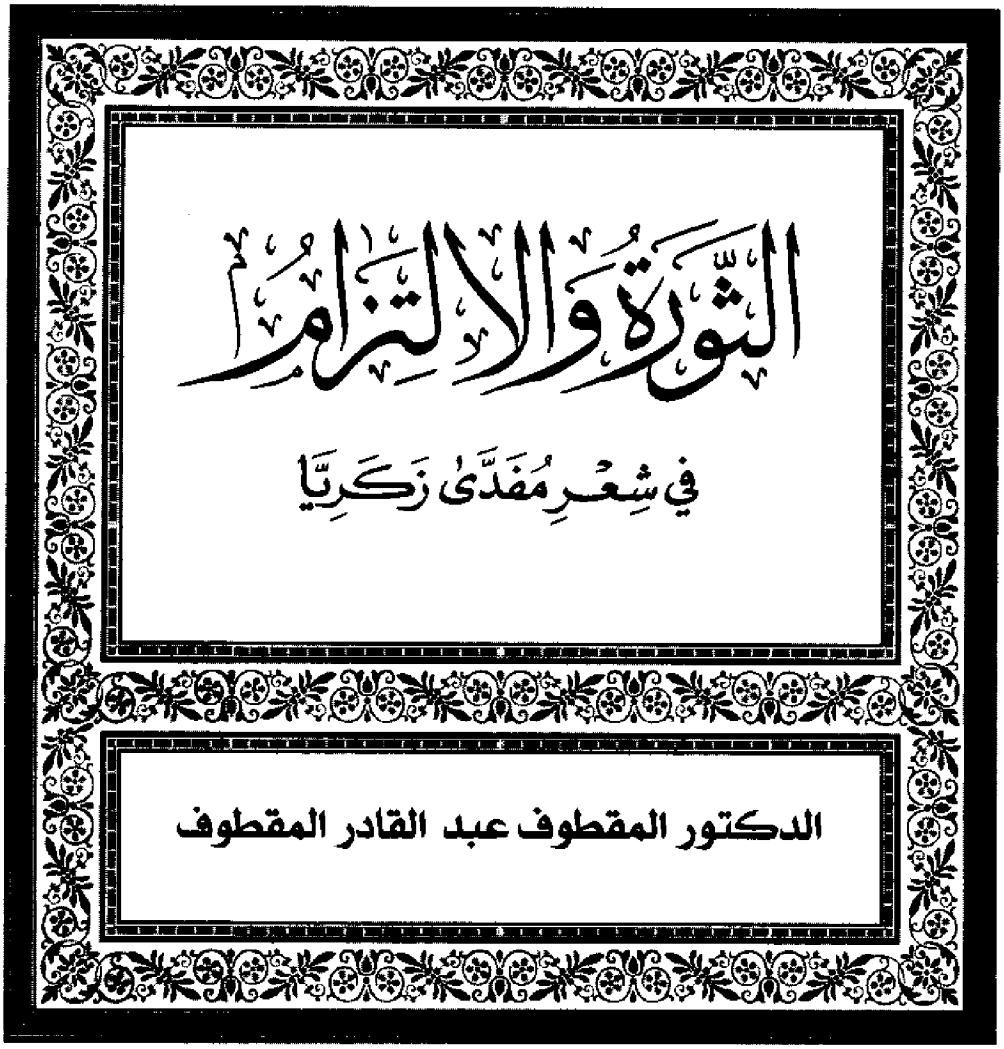

تمهيد:

قبل الحديث عن الثورة والالتزام في شعر الشاعر، أمهد للحديث عن ذلك بتعريف وجيز به وبآثاره الشعرية التي تمثل ـ في مجموعها ـ نماذج شعرية رفيعة؛ لما اتسمت به من قوة التعبير، وصدق التصوير، وحرارة العاطفة، فكانت ـ بذلك ـ تجربة شعرية صادقة، أكدتها المواقف والأحداث.

وبذلك كله كانت جديرة بالبحث والدراسة والتحليل، وكان صاحبها شاعراً ملتزماً.

أولاً: الشاعر

هو الشاعر الجزائري «مفدى زكريًّا»، ولد سنة 1913ف بواحة «بني ميزاب»، بقرية «بني يَسجن» بالجزائر.

قرأ القرآن الكريم، ثم كان أحد أفراد البعثة التعليمية الجزائرية التي ذهبت إلى تونس، وفيها درس في المدرسة الخلدونية، ثم في جامع الزيتونة، حيث درس علوم العربية كالنحو، والصرف، والبلاغة والأدب، وغيرها...

وحينما ولدت «جبهة التحرير الجزائرية» انضم إليها، ودخل السجن مرات عديدة، حتى فرَّ منه عام 1959ف، وظل يناضل في صفوف الجبهة التحريرية حتى سنة 1968ف، ثم ارتحل إلى تونس وتوفي فيها سنة 1977ف[1].

ثانياً: آثاره الشعرية

للشاعر مفدى زكريا آثار شعرية متعددة، متنوعة، فضلاً عن آثاره النثرية المشار إليها في آخر صفحات ديوانه: «اللهب المقدس».

ويمكن إجمال القول في آثاره الشعرية فيما يلي:

1 ـ ديوان: «محاولات طفولة»، وهو نتاجه الشعري في صباه.

2 ـ ديوان: «الخافق المعذب»، وهو شعر الهوى والشباب.

3 ـ ديوان: «أهازيج الزحف المقدس»، وهو أغاني الشعب الجزائري.

4 ـ ديوان: «انطلاقة»، وهو ديوان المعركة السياسية في الجزائر من سنة 1935 حتى عام 1954ف.

5 ـ ديوان: «تحت ظلال الزيزفون»[2]، نشرته الدار القومية بتونس سنة 1965ف.

---

(1) انظر: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، نسيب نشاوي، (دمشق)، (لاط)، 1980ف، وانظر: تاريخ الشعر العربي الحديث، أحمد قبش، (دمشق)، (لاط). 1971ف، ص166 وما بعدها.

(2) الزيزفون: شجر أبيض الخشب طريه، يزهر ولا يثمر. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. (مطبعة مصر)، القاهرة، 1960ف، جـ1، ص411.

ولم تسعفنا المراجع التي تحت أيدينا بمعلومات ضافية عن هذه الدواوين الشعرية المشار إليها بإيجاز، والتي حاولت ترتيبها زمنياً؛ مراعاة لعمر الشاعر منذ صباه.

6 ـ ديوان: «اللهب المقدس»، الذي يُعدُّ مفخرة الشاعر، والذي لقب نفسه فيه أدبيّاً «ابن تُومَرت»[3]، ولقب عليه بـ«شاعر الثورة الجزائرية».

7 ـ «إلياذة الجزائر»: وهي ملحمة شعرية تاريخية «مستقاة من تاريخ الجزائر ومن واقع نضالات أبطالها رجالاً ونساء»[4].

وألقاها الشاعر مفدى زكريًّا في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، في الفترة من 24/ 7 حتى 10/ 8/ 1972ف.

ونشرت مرة أخرى في كتاب الملتقى السادس، وأعيد نشر قطع منها بمجلة «الأصالة»[5].

«وكمل نصابها في ألف بيت وبيت» كما قال الشاعر نفسه[6].

تلك إلمامة وجيزة بنتاج الشاعر، ومن خلالها يتضح للقارئ غزارة نتاجه الشعري، وقيمته الأدبية والتاريخية، الأمر الذي دفع بي إلى كتابة هذا البحث عنه في إطار مظاهر الثورة والالتزام في شعره.

ولما كان ديوان اللهب المقدس مفخرة للشاعر استحق أن يلقب بسببه بشاعر الثورة الجزائرية ـ كما أشرت ـ فقد اعتمدته مصدراً لدراسة الموضوع؛

---

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الذي لقب نفسه بالمهدي وهو صاحب الدعوة إلى السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، ولد سنة 485 وتوفي سنة 524هـ) انظر ترجمته وأخباره في المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، (الكتاب الثالث) تحقيق محمد سعيد العريان. (القاهرة)، 1963ف، والأعلام، لخير الدين الزركلي، (بيروت)، 1969ف، ط3، جـ7، ص104 ـ 105.

(4) مجلة الأصالة، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية) بالجزائر، (عدد خاص) السنة الثالثة، العدد 22 (أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر) 1974، ص203.

(5) انظر: نفس المرجع ونفس الصفحة.

(6) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، (منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية) بالجزائر 1973، ط2، ص4 من تقديم الشاعر نفسه لديوانه بـ«كلمة عابرة».

لما فيه من نماذج شعرية تمثل ـ بحق ـ الشعر الثوري الملتزم، الذي يمثل النضال الثوري بالموقف، وبسلاح الكلمة الشعرية الثائرة التي تفعل فعل السحر في النفوس.

ثالثاً: شاعريته وشعره

كان مفدى زكريا ذا موهبة شعرية نمت نمواً ملحوظاً مع مرور الأيام، وكان للظروف الصعبة التي عاشتها الجزائر في ليل الاستعمار الطويل أثر كبير في رهافة حسه، وسمو عاطفته وصدقها وثباتها.

وكان لثقافته العربية الإسلامية أثر كبير كذلك في صقل موهبته الشعرية التي جعلته يُسخِّر شعره وجهده في سبيل الدين، والوطن، والثورة، والعروبة.

كان شعره «نبعاً من روحه ونفسه، وسجلاً حافلاً لمراحل حياته العادية، والسياسية، والنضالية»[7].

وقد سخر شعره في إذكاء نار الثورة على المستعمرين الفرنسيين وأذنابهم، ونادى صراحة باتباع أسلوب القوة في تغيير الواقع الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي الذي كان يعمل للقضاء على جميع مقومات ذلك الشعب العربي المسلم[8].

استمع معي ـ أخي القارئ ـ إلى هذه الأبيات التي تُعدُّ مظهراً من مظاهر ثورته على المستعمرين الفرنسيين:

السيف أصدق لهجة من أحرفٍ ... كُتِبتْ فكان بيانها الإبهامُ

والنار أصدق حجة فاكتُبْ بها ... ما شئت تُصعق عندها الأحلام

عِزُّ المكاتب في الحياة كتائب ... زحفتْ كأن جنودَها الأعلامُ[9]

---

(7) تاريخ الشعر العربي، أحمد قبش، ص166.

(8) انظر: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، نسيب نشاوي، ص357.

(9) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريًا، ص43.

إلى أن يقول:

لغة القنابل في البيان فصيحة ... وُضعت لمن في مسمعيه صُمام

والحق والرشاش إن نطقا معاً ... عنت الوجوه وخرت الأصنام[10]

والشعر عند مفدى زكريا إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة[11].

وللشعر رسالة مقدسة في هذه الحياة، فهو ليس عبثاً من القول، أو هراء يتلهى به الفارغون، بل هو سلاح للنضال في سبيل المبادئ والقيم الرفيعة، استمع إليه يقول:

وإننا ـ الشعراء الناس ـ ما فتئت ... أرواحنا تغمر الإنسان إيماناً

رسالة الشعر في الدنيا مقدسة ... لولا النبوءة كان الشعر قرآناً[12]

وقد ثار على ما سُمِّي حديثاً بـ«الشعر الحر»، وعده من رخيص القول، وعبث العابثين، وذلك في قوله:

وعابثين أرادوا الشعر مهزلة ... فأزعجوا برخيص القول آذاناً

تنكروا للقوافي حين أعجزهم ... صوغ القوافي وضلوا عن ثنايانا

قالوا: جمود على الأوضاع وزنُكُمُ ... فشِعرُنا الحرُّ لا يحتاج أوزانا

فأين من جرس الإيقاع خلطكمُ؟ ... ما الشعر إن لم يكن دوحاً وأغصاناً؟

وكيف؟ هل خلد التاريخ سخفكمُ؟ ... مهما تفنَّن إخراجاً وإتقاناً

وما عسى تنفع الإسفافَ مطبعةٌ ... تضفي الدمقس[13] على الأموات أكفانا

وهل أعار رواة الشعر لغوكم ... وزناً؟ وهل حشوكم بالحفظ أغراناً[14]؟

---

(10) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص44.

(11) انظر: الشعر الجزائري، صالح خرفي، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر، (لاط)، 1970ف، ص288. وقضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الله ركيبي، (معهد البحوث والدراسات العربية)، القاهرة، 1970ف، ص154.

(12) اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص290.

(13) الدمقس: «الحرير»، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جـ1، ص: 296.

(14) اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص290، 291.

لقد كان مفدى زكريا «يثير بأشعاره الشعور والمشاعر، وهو سجين «بربروس»[15].

وإذا كان الأمر كذلك فليس بغريب أن يسمي ديوانه الذي يعد مفخرة له وللجزائر ـ أيضاً ـ «اللهب المقدس».

واحتوى ديوانه المذكور على العديد من الأناشيد الوطنية الثورية، مثل قوله:

قسماً بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الدافقات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا[16]

وهذا هو «النشيد الرسمي للثورة الجزائرية»[17].

كما ضم ديوانه ـ كذلك ـ العديد من القصائد التي تعد سجلاً تاريخياً لنضالات الجزائريين ضد المستعمرين الفرنسيين، وهي قصائد تمثل النزعة الثورية والوطنية لشاعر الثورة الجزائرية.

ولم يكن الشاعر مفدى زكريا إقليمياً، بل كان شاعراً قومياً مؤمناً بقضايا الأمة العربية، وبالدعوة إلى وحدتها.

وكان لقضية فلسطين نصيب من شعره؛ إذ ما كانت تعانيه الجزائر من ظلم واستعمار فرنسي كانت ـ وما زالت ـ تعانيه فلسطين، والمصائب يجمعن المصابين.

---

(15) تاريخ الأدب الجزائري، محمد بن عمرو الطمار، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر، (لاط)، (لات)، ص: 327.

ويقع سجن بربروس في قلب حي القصبة بالجزائر، وهو اليوم أحد متاحف الثورة الجزائرية. انظر: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، نور سلمان، (دار العلم للملايين)، بيروت ـ لبنان ـ ط1، 1981ف ص371، 372 بالحاشية رقم 149.

(16) اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص71.

(17) نفس المصدر، والصفحة نفسها.

رابعاً: من مظاهر الثورة والالتزام في شعره:

إذا كانت الثورة تعني التغيير إلى الأفضل وتدمير القواعد الظالمة، وتحرير الأرض والإنسان المقهور في بلاده من قبل الاستعمار، فإن الالتزام يعني المشاركة في قضايا الجماهير، والعمل على حل مشكلاتها[18].

والتزام الأديب بعامة، والشاعر بخاصة، شيء نابع من ذاته وطبيعته وتفكيره وعقيدته من دون أن يُلزمه أحد بذلك، فالالتزام ذاتي لا غيريٌّ[19].

فالشاعر أو الأديب جزء من مجتمعه وأمته، والتزامه القومي والوطني والثوري هو الذي يدفعه إلى النضال من أجل وطنه وأمته، وإلى تقديم «الرؤية الصحيحة اجتماعياً، وفكرياً، وحضارياً»[20].

وبهذا كله يكون الأديب ملتزماً، سواء أكان شاعراً أم كاتباً.

وتتمثل قضايا الالتزام في شعر مفدى زكريا في مظاهر متنوعة منها:

1 ـ قضية الحرية:

أي حرية الوطن والمواطن على اختلاف مظاهر الحرية التي تعد حقاً من حقوقه؛ لأن الإنسان خُلق حراً فلا يصح لغيره أن يستعبده بالقوة، ويحتل أرضه بقوة الحديد والنار، كما فعل الفرنسيون في الجزائر، الأمر الذي دفع بمفدى زكريا إلى النضال وتحمُّل الأذى ـ على اختلاف مظاهره ـ في سبيل هذه القضية.

لقد ربط الشاعر الثائر مفدى زكريا مصيره بمصير شعبه وأمته، فكان شعره تعبيراً عن ثورته الصادقة، وثورة الشعب العربي الجزائري المجاهد، وعن الآلام

---

(18) انظر: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، نسيب نشاوي، ص345.

(19) انظر: فن الأدب، توفيق الحكيم: (مكتبة الآداب) القاهرة، (لاط)، (لات)، ص311.
وقضايا النقد الأدبي، بدوي طبانة، (معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة)، (لاط) 1971. ص51.

(20) قضايا النقد الأدبي، بدوي طبانة، ص66.

والآمال التي كانت تعيشها الجزائر، والأمة العربية التي تحالفت ضدها قوى الاستعمار في العصر الحديث.

فهو بحكم ثوريَّته «يصف الأحداث والوقائع كما رآها، ثم يتخذها منطلقاً نحو التغيير والإصلاح»[21].

وفي سبيل قضية الحرية ثار ثورة عنيفة على الاستعمار وأذنابه، ودعا إلى الثورة واستمرار المقاومة حتى التحرير، وتحمل آلام السجن والتعذيب حتى تحققت الحرية للشعب الجزائري، وبقيت الجزائر عربية مسلمة، وتبددت أحلام المستعمرين الفرنسيين على صخرة المقاومة الشعبية الجزائرية الباسلة.

فلنستمع إلى مفدى زكريا في إحدى ثورياته التي يشير فيها إلى أن تقرير المصير لا يكون في عقد مؤتمرات بل يتقرر بالدماء الغالية:

وفي الجزائر شعب ثار مندفعاً ... للمجد يسخر بالأحداث والغِيَرِ
لا نرتجي العدل من قوم سماسرة ... خير البرية منهم غير منتظر
مصيرنا بالدم الغالي نقرره ... في محفل الموت لا في عقد مؤتمر[22]

وفي وطنية أخرى خاطب (ديغول) قائلاً:

«ديغول» يعلم ما نريد ... ما باله حيران لا يتكلم؟
فقد الصراحة أم أضاع فصاحةً ... أم أن تقرير المصير توهُّمُ؟
وقفُ القتال خرافة إن لم يكن ... للشعب في أمر المصير تحَكُّمُ
أرض الجزائر لابْنِها ثَرَواتُها ... ومن الخيانة أن تباع الأسهم
ومن السفاهة أن تضيع حقوقها ... فيما يُدبَّر في الظلام ويُبَرمُ[23]

إلى أن يقول:

---

(21) مجلة «الثقافة»، تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة السادسة، العدد 32 (أبريل ـ مايو)، 1976ف، مقال: «الأديب بين الريادة والمواكبة»، الطيب برغوث، ص: 88.

(22) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص142.

(23) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص143، 144.

أهدافنا في العالمين صريحة ... الشعب أعلنها وفسَّرها الدَّمُ
الشعبُ أكسَبَهُ الجهادُ حصافةً ... ورويَّةً فهو الحكيم الملهم
وسراته الأحرارُ ما استواهُمُ ... دون المصير مُخدِّر ومُنَوِّمُ
السلم نحن رجالها لكننا ... شجعان ـ يا ديغول ـ لا نستسلم
إن كان في طَيِّ السلام مَذَلَّةٌ ... فالموت أشرف للكرام وأسلم
أو كان تقرير المصير خديعةً ... فَلَنِعْمَ تقريرُ المصير جهنمُ[24]

وفي ثورية أخرى يقول بعد أن وصف المآسي الرهيبة التي عاشتها الجزائر من تنكيل، وفظائع مختلفة المظاهر تقشعر الأبدان من هولها؛ لما اتسمت به من همجية تدل على حقد المستعمرين الفرنسيين على الشعب العربي المسلم في الجزائر ـ يقول:

أَبَعْدَ خمسِ شدادٍ ملِّئَتْ عجَبا ... (ديغول) بالكلم المعسول يُغرينا؟
لا سَلْمَ في الأرض ما دامت قضيتنا ... لم تلق في الأرض بالقسط الموازينا
ثرنا على الظلم لا نلوي على أحدٍ ... لا شيء في الكون دون العزِّ يُرْضينا[25]

وهو في ثورياته يكشف عن أساليب الاستعمار الفرنسي الخبيثة ويجيد وصف المآسي الاستعمارية في الجزائر؛ لما في ذلك زرع للحقد المقدس على الفرنسيين المستعمرين، وتحريض قوي على الثورة الحمراء ضدهم حتى تتحقق الحرية التي تناضل الجزائر ـ بشجاعة وصمود ـ في سبيل تحقيقها والمحافظة عليها.

فهو يقول:

وتأتون الجرائم سافرات ... فضائح تهتكون بها الوقارا
قد احمرَّ الصليب لها حياءً ... وضجَّ لها ابن مريم والنصارى[26]

(24) نفس المصدر، ص145.
(25) نفس المصدر، ص151.
(26) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص154.

وهو يحذر المستعمرين الفرنسيين من الاستمرار في جهلهم وغرورهم، ويؤكد أن استقلال الجزائر حق وعدل لا بد منه مهما كانت التضحيات، استمع ـ أخي القارئ ـ إلى هذه الأبيات:

نرى استقلالنا عدلاً وحقاً ... فرنسا، لم تزل فيه تمَارَى

له فوق الجماجم قد صعدنا ... وفي تحقيقه خضنا الغمارا

فلا نرضى به أبداً بديلاً ... نعيمَ الخلد لو نُعطى الخيارا[27]

كانت وطنيته تدفعه إلى توظيف فنه الشعري في سبيل الوطن، والثورة والحرية، وكانت قصائده الثورية ناراً على المستعمرين؛ لما لها من تأثير في النفوس، ونوراً للمجاهدين الجزائريين، فلنستمع إليه يقول:

حبست شعري وإلهامي على وطني ... فانساب ينشر في الدنيا معالينا

وَهِمْتُ بالثورة الكبرى أساوقها ... أهزُّ ـ في الثورة الكبرى ـ رواسينا

كم صفقت لأناشيدي مدافعنا ... وأطرقت لتسابيحي نوادينا

فكان شعري والرشاش في مرح ... هذا يُغنِّي وذا يُزجي التلاحينا

وكان للجيش تنزيلاً يرتله ... وقد تَنَزَّلَ يَفْتَكُّ الميادينا

وللجزائر تبياناً تُلَقِّنُهُ ... من ليس يفهم في الدنيا معانينا[28]

وهكذا كان مفدى ثائراً ملتزماً بالنضال في سبيل الحرية، على الرغم من كل المحن التي نزلت به جرّاء النضال في سبيلها.

وما أوردته من نماذج شعرية له يعد قليلاً، ولكنه يعطي للقارئ صورة مشرقة عن نضال ذلك الشاعر الثائر بالموقف الثابت، وبسلاح الكلمة الشعرية المعبرة الصادقة.

ونظرة في ديوانه: «اللهب المقدس» تغني القارئ عما أشرت إليه.

---

(27) نفس المصدر، ص155.

(28) ديوان اللهب، المقدس، مفدى زكريا، ص227.

2 ـ الدفاع عن قضايا العروبة:

لم يكن الشاعر مفدى زكريا شاعراً إقليمياً يناضل من أجل الجزائر ـ فقط ـ بل كان ثائراً عربياً ضد الاستعمار والإقليمية، يرى أن أقطار العروبة تمثل وطناً عربياً واحداً مهما تباعدت الديار، وأن آلام العرب وآمالهم واحدة، ومصيرهم واحد، وأن في وحدة أقطارهم قوة ومنعة تحميها من تكالب الأمم الباغية عليهم؛ إذ لا احترام في هذا العالم إلا للأقوياء.

أ ـ فقد دعا إلى وحدة المغرب العربي باعتبارها تمثل خطوة على طريق الوحدة العربية الشاملة فقال:

وفي المغرب الجبار ناشدتُ وحدة ... سَبَقْتُ بها ـ في فجر عُمْرِيَ ـ أقراني[29]

وأحببت أوطاني رضيعاً ولم أزل ... أُغَنِّي مع الدنيا بأمجاد أوطاني

وهمت بأبناء العروبة يافعاً ... أرى كل أبناء العروبة إخواني[30]

وكانت له عناية خاصة بالمناسبات الوطنية والقومية، كاستقلال تونس سنة 1956، لينطلق منها إلى الدعوة إلى الوحدة، ففي قصيدته التي قالها بمناسبة عيد استقلال تونس نجده «يرسم صورة للمغرب العربي كله، وكأنه طائر قلبه الجزائر، وجناحاه المغرب وتونس»[31]، ومما جاء فيها قوله مخاطباً تونس:

المغرب العربي أنت جناحه ... حرِّكْ جناحك يصعد المنطاد

ولتشهد الدنيا هنالك وحدة ... جبارة تفتح لها الآباد

شعب الجزائر قام يبني صرحها ... بدمائه والحادثات شداد[32]

وفي قصيدة أخرى قالها بمناسبة ذكرى عيد استقلال تونس ـ أيضاً ـ تحت

---

(29) «تغنى الشاعر بوحدة المغرب العربي منذ العاشرة من عمره»، اللهب المقدس، ص321 بالحاشية رقم (1) من هذه الصفحة.

(30) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص321.

(31) قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الله ركيبي، ص12.

(32) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص172.

عنوان: «يوم الخلاص» أكد أن المغرب العربي شعب واحد لا يقبل الانقسام ولا الضيم، وذلك في قوله:

إنما المغرب الموحَّد شعب عربيٌّ لا يقبل الانقساما
ثار يبني استقلاله بالدم الغا لي وتأبى شعوبه أن تُضَاما[33]

ويخاطب الجيش ناصحاً له بالتلاحم مع تونس لتقوية الروابط الأخوية؛ فالجزائر والخضراء أختان ـ حسب تعبيره ـ كما جاء في قوله:

فشيِّدْ مع الخضراء يا جيشُ دولةً مدعَّمة الأركان عروتها وثقى
جزائر والخضراء أختان في الهوى وفي خالد الأجيال قد كانتا رتْقا
لنا في حمى الخضراء أهل وجيرة كرام زكت أفضالهم وسمتْ خُلْقاً

كما أشار إلى اللُّحمة بين الجزائر والمغرب الأقصى قائلاً:

وفي المغرب الأقصى لنا اللحمة التي تزيد مع الدنيا وشائجها عمقاً[34]

فهو يدعو إلى وحدة أقطار المغرب العربي؛ لما بينها من وشائج قوية، ولأنَّ وحدة المغرب العربي تعد خطوة مباركة على درب الوحدة العربية الشاملة التي نادى وينادي بها الثائرون المخلصون.

ب ـ التغني بالعروبة في وطنها الأكبر:

لم يكن الشاعر مفدى زكريا إقليمياً ـ كما أشرت بل كان ثائراً عربياً تهزه أحداث العروبة أينما كانت، وبذلك برهن على عروبة الجزائر، وعبر عما يجيش في نفس كل جزائري مخلص لعروبته ووطنه الكبير. «وكانت قضية فلسطين ـ ولا تزال ـ محكَّ الأصالة العربية في كل قطر عربي، واسم فلسطين والجزائر تعانقا في أكثر من موقف»[35]. فالشاعر مفدى زكريا يربط في حديثه عن الجزائر بينها وبين أقطار العروبة التي ابتليت بالاستعمار، وكأنه بذلك يرد على من

(33) نفس المصدر، ص211.
(34) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص203، 204.
(35) الشعر الجزائري، صالح خرفي، ص261.

يعملون على فصل الجزائر عن باقي أقطار العروبة، وهم المستعمرون وأذنابهم، ويؤكد لهم بأن الجزائر عربية مسلمة، لا ترضى بغير ذلك بديلاً[36].

وكان «لقضية فلسطين» من شعره نصيب؛ إذ ما كان يجري في الجزائر من أحداث مروعة كان يجري مثله في فلسطين، فقد وحدت بينهما الآلام والآمال، فضلاً عن غيرها من الروابط الأخرى المعروفة.

فها هو ذا الشاعر الثائر مفدى زكريا يشير إلى مأساة فلسطين، وينتقد من أضاعوها، ويصب غضبه عليهم؛ لأنهم يعيشون لأنفسهم ولم يؤدوا واجبهم بإخلاص نحوها فيقول:

ويح العروبة كم ديست قداستها ... وسامها الخلْف إفلاساً وخذلانا
وعاكفين على النعمى يهدهدهم ... صفو الليالي ومارَقُّوا لبلوانا
ناموا وفي الدار «إسرائيل» ترصدنا ... وأغمضوا دون «إسرائيل» أجفانا
وفي الجزائر أشلاء ممزقة ... راحت عن العُرْب قربانا وغفرانا
الشرق في الخَطْبِ طارت عنه سكرتُه ... لولا المصاب لظل الشرق سكرانا[37]

وفي هذه الأبيات نلاحظ أن الشاعر في حديثه عن فلسطين يربط بينها وبين الجزائر الثائرة، وكانت المصائب التي مُني بها الشرق دافعاً قوياً له على الثورة، فلولاها لظل الشرق في سكرته لا يحرك ساكناً.

وهو في حديثه عن الشرق والعروبة والنكبة، لا ينسى «مدينة القدس» وما تضمره الجزائر من حب قوي لها فيقول:

قدسُ العروبة والآيات شاهدة ... ما انفك تغمره حبّاً طوايانا[38]

وهذا الحب الغامر للقدس هو الذي يدفع العرب جميعاً للعمل على استردادها من أيدي الصهاينة المعتدين.

وهو يربط في حديثه بين ثورة الجزائر وثورة فلسطين، ـ كما أشرت ـ

---

(36) انظر: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الله ركيبي، ص26.

(37) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص293، 294.

(38) نفس المصدر، ص296.

ويؤكد على أخذ الثأر من المعتدين، وعلى أنه لا عزة ولا مجد للعرب حتى تستقل الجزائر وفلسطين، وتتحقق الوحدة العربية الكبرى.

عبر عن ذلك بقوله:

سنثأر حتى يعلم الكون أننا ... أردنا فأرغمنا بإصرارنا الدهرا
ويا عربيّاً في بلاد شقيقة ... عُروبتُنا من يستطيع لها نُكْرا؟
فما حربنا إلا امتداد لثورة ... أراد لها من كان يخْذِلُنا خُسْرا
فلسطين في أرض الجزائر بَعْثُها ... فمدُّوا يداً نَحْمِ المعاقل والثغرا
فلا عزَّ حتى تستقل جزائر ... ولا مجد حتى نصنع الوحدة الكبرى[39]

وله قصيدة طويلة تحت عنوان: «فلسطين على الصليب» قالها بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين في صورة «حوار بين الشاعر، وفلسطين، والعرب»[40].

ومما جاء فيها عن فلسطين قوله:

أناديك في الصرصر[41] العاتيه ... وبين قواصفها الذارية
وأدعوك بين أزيز الوغى ... وبين جماجمها الجائية
وأذكر جُرحك في حربنا ... وفي ثورة المغرب القانية
فلسطين يا مهبط الأنبيا ... ويا قبلة العَرب الثانية

إلى أن يقول:

فلسطين والعُربُ في سكرة ... قد انحدروا بك للهاوية
رماك الزمان بكل لئيم ... زنيم[42] من الفئة الباغية

(39) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص318، 319.

(40) انظر القصيدة كاملة في المصدر نفسه، ص336 وما بعدها.

(41) الصَّرصَر: هي ريح شديدة الصوت أو البرد»، القاموس المحيط، الفيروزأبادي، جـ2، ص71 مادة «صر».

(42) زنيم: المستلحق في قوم ليس منهم، واللئيم المعروف بلؤمه. نفس المرجع مادة: «زام» جـ4، ص128.

وحطَّ ابن «صهيون» أنذاله بأرضكِ آمرةً ناهية
ومن ليس يهتز فيه ضمير ولا في حوانيه إنسانية

وبعد هذه الأبيات من نداء الشاعر وحواره لفلسطين وهو حوار يشتمل على أبيات كثيرة، يعود فيؤكد أن الجزائر لا تنسى فلسطين؛ لما بينهما من وشائج راسخة ـ حسب تعبيره ـ.

استمع إليه ـ أيها القارئ الكريم يقول:

أنا ابن الجزائر من أمة على دمها تصعد الرابية
على ذوب أكبادها ترتقي وفوق جماجمها ماضية
غدوت لثورتها شاعراً من النار والنور ألحانيه
فلسطين في صُلبنا لحمةٌ جراحاتها في الحشا ثاوية
عروبتنا في ضمير البقا وشائج راسخة راسية
فلسطين في أرضنا بعثها ومن أرضنا تزحف الحامية
ومن أرضنا نقطة الانطلاق وثورتنا حجر الزاوية[43]

وهو يرى أن نكبة العرب في فلسطين فيها عبرة ـ مدى الدهر ـ لمن كان له قلب واع وفكر مستنير.

ويلاحظ القارئ المتأمل أن الشاعر كان «دائم الربط بين العروبة والوحدة وبينهما وبين الشرق، وكثيراً ما تختلط هذه الكلمات لتؤدي معنى واحداً، وتهدف إلى فكرة واحدة، وهي أن الأقطار العربية في شتى أنحائها هي أرض واحدة، ووطن واحد، وكأن الشاعر الجزائري يرد على دعاة التفرقة، وعلى أولئك الذين يقصدون فصل الجزائر عن باقي الأمة العربية...»[44].

وكان حديثه عن الشرق والعروبة والوحدة، والربط بينها وبين الجزائر يتسم بالقوة والنبرة الخطابية، وذلك دليل على صدق إيمانه الوطني والقومي،

(43) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص348، 349.
(44) قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الله ركيبي، ص21، 22.

وحسه الثوري الذي يدفعه بقوة إلى الحديث عن ذلك.

وللشاعر قصيدة في لبنان بعنوان: «معجزة الصانع».

وهو معجب بذاك البلد الجميل وبأهله وبثورته، فهي ـ كما يقول ـ: «معجزة الصانع».

ومما جاء فيها قوله:

قام على أوضاعه ثائراً ... يستبدل الفاسد بالنافع

وهبَّ في لبنان مستعرضاً ... ثورته في عامها الرابع[45]

وما له غير القُوى ... ووحدة المجموع من دافع

وبعد ذلك يختمها بقوله:

لبنانُ بارِكْ زحف أبطالها ... لبنان يا معجزة الصانع[46]

والحديث عن لبنان يندرج في إطار حديثه عن الشرق والعروبة والتغني بهما في إطار شعره القومي الثوري.

وحينما تم الاعتداء الثلاثي على مصر سنة 1956ف نظم الشاعر ـ وهو في سجن بربروس «بقعر الزنزانة رقم 93» ـ أبياتاً، وقد عُثر على الأبيات التي نظمها فمزقت، ولقي جرّاء ذلك ألواناً من العذاب، وبعد خمس سنوات تذكر الشاعر تلك الأبيات وهو في بيروت يوم ذكرى الاعتداء الثلاثي على مصر، فأتم القصيدة، مخاطباً جمال عبد الناصر فيها بقوله:

قل يا جمال يُردِّدْ قولك الهَرَمُ ... واحكم بما شئت تُنجزْ حُكمكَ الأممُ

واصدع بأمرك «فالثالوث» يَرْهبُه ... واخفُقْ بثغر الحِمَى يخفُقْ به العلَمُ

واحفظ لمصر قناةً في حشاشتها ... جرى بها ـ قبل أن يجري البخارُ ـ دَمُ

وذدْ عن الحوض نَصَّابِينَ ما فَتِئُوا ... له يكيدون لا تَنْهاهُمُ ذِمَمُ

---

(45) «ثورة لبنان عام 1958ف انظر: اللهب المقدس، ص332 بالحاشية رقم (1).

(46) القصيدة في اللهب المقدس، من ص329 حتى 335.

وفيها يندد بالمستعمرين المعتدين، ويدعو إلى مؤازرة الجزائر، وهو غير يائس من تحقيق وحدة العرب على الرغم من المحن التي تعانيها الأمة العربية من تمزق وانقسام وتبعية.

فقد خاطب رائد الوحدة العربية المأمولة بقوله:

يا رائد الوحدة الكبرى وقائدها ... لا يأس فالوحدة الكبرى ستنتظم
فما «انتكاستنا» إلا لتجربة ... أرادها الله تُجلَى بعدها الظُّلَمُ
عهد العروبة ركن من عقيدتنا ... وللعروبة في أصلابنا رحم
وفي الجزائر أكباد تفور دماً ... فداء يَعْرُبَ يجري سيلها العَرِم
مُدُّوا لها يد صدق غير واهية ... تشأرْ ليَعْرُبَ فيها الساح والقِمَمُ
من الجزائر ذئب الغرب باغتنا ... وفي الجزائر عهد الذل يُختتم[47]

وما أكثر ما قال مفدى «شاعر الفداء» في التغني بالعروبة، والشرق والوحدة العربية الكبرى!

ومما أوردته من مقتطفات من شعره الثوري والقومي يدل دلالة قاطعة على أنه شاعر ثائر ملتزم بالنضال في سبيل وطنه وأمته، وقد تحمل في سبيل ذلك كل ألوان الأذى فما لانت قناته، ولا ضعف إيمانه، بل صابر وصبر حتى تحقق الكثير مما كان يدعو إليه ويناضل في سبيله نضال الأبطال، فهو جدير حقاً بأن يلقب بـ«شاعر الثورة الجزائرية». وبـ«شاعر الفداء».

خامساً: من سمات شعره

من يقرأ شعر مفدى زكريا يستخلص منه مجموعة من الخصائص الفنية سواء من حيث الشكل، أو من حيث المضمون ـ كما يقال ـ ويمكن إيجاز القول في بعض سمات شعره فيما يلي:

1 ـ قوة التعبير وحرارته؛ فألفاظه قوية، وتراكيبه كذلك، فهو يستخدم الكلمات القوية الموحية، مثل: «الرشاس»، و«المدفع»، و«المسدّس»

(47) ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، ص303، 304.

وغيرها من أسلحة النضال التي كان المجاهدون الجزائريون يدمرون بها أعداءهم.

ويبدو ذلك واضحاً في قوله:

والحق و«الرشاشُ» إن نطقا معاً عنت الوجوه وخرت الأصنام

وقوله ـ أيضاً ـ:

لغة القنابل في البيان فَصِيحةٌ جعلت لمن في مسمعيه صُمام

وقوله كذلك في القصيدة نفسها[48]:

لا، والمراضع عُوِّضَتْ أثداؤها بفَمِ «المسدَّس» و«الرصاص» فطام

وهناك غيرها من الكلمات القوية الموحية التي استعملها الشاعر الثائر في مكانها المناسب من القصيدة.

وبذلك امتازت قصائده بالحرارة التي تنطلق من بين مفرداتها وتراكيبها.

2 ـ «مواكبته واقع الحرب والثورة مواكبة جمعت بين الالتزام العاطفي والالتزام النضالي»[49].

3 ـ محافظته على الشعر العمودي من حيث الوزن والقافية في مجموع شعره.

4 ـ النزعة الخطابية بادية في شعره من حيث تنوع أسلوبه الشعري بين الخبر والإنشاء؛ بغرض التأثير في القارئ والمستمع؛ فيلاحظ قارئ شعره طغيان هذه النزعة بشكل واضح؛ إذ يكثر في تضاعيف أسلوبه «الاستفهام والإنكار، والتعجب، والنداء، والأمر، والنهي إلى آخر هذه الأدوات البلاغية المستعملة في أسلوب الخطب عادة»[50].

---

(48) انظر القصيدة، في اللهب المقدس، لمفدى زكريا، ص42 وما بعدها.

(49) الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، نور سلمان، ص324.
وانظر مقدمة اللهب المقدس (كلمة عابرة) للشاعر نفسه، ص4.

(50) مجلة «الثقافة» تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة السابعة، العدد 40، (أغسطس ـ سبتمبر)، 1977، مقال: «المحافظة والتقليد في الشعر الجزائري الحديث)، محمد ناصر، ص53.

5 ـ لغته: أما لغته فتكثر «في تضاعيفها الألفاظ الجزلة ذات الرنين الضخم والجلبة القوية، فهي تملأ السمع، وتثير الانتباه بقوتها..».

وهو يفعل ذلك عن عمد ـ فيما أرى ـ لأن الشعر الثوري لا تناسبه إلا اللغة القوية التي تقرع الآذان، فيكون لها التأثير المطلوب في القارئ والسامع معاً.

6 ـ عدم اهتمامه بما سمي بـ«الوحدة العضوية» التي نادت بها مدرسة «الديوان»، واعتماده وحدة البيت كغيره من الشعراء القدامى.

7 ـ الاستعانة بالجملة القرآنية، وذلك تأثُّراً منه بأسلوب القرآن الكريم، وكذلك الشعر العربي القديم، كما يبدو ذلك في بعض قصائد الديوان لمن تأمل ذلك!

8 ـ التركيز على الإسلام والعروبة والدعوة إلى الاستمساك بذلك، كرد فعل على المستعمر الفرنسي الذي استهدف محو الشخصية العربية المسلمة في الجزائر، وهذه سمة واضحة في شعره.

وبإجمال القول في سمات شعر ذلك الشاعر أختم هذا البحث المتواضع عن الشاعر الثائر الملتزم مفدى زكريا ـ رحمه الله ـ. الذي كان شعره نابعاً من حسِّه ووجدانه، ـ فهو كمال قال:

وما ذاك إلا أن شعري من دَمي يُفجِّره وعيي وحسِّي ووجداني

وبذلك كان شعره يمثل الشعر الثوري الملتزم بالنضال في سبيل الحرية والعزة والكرامة.

وشاعر كهذا جدير بالالتفات إلى تناول شعره بالدراسة والتحليل والنقد بصورة أوفى وأشمل؛ تقديراً لمكانته ونضاله وفنه الشعري الجميل الذي كان ناراً على المستعمرين، ونوراً للمجاهدين.

أولاً: المصادر

1 ـ ديوان اللهب المقدس، مفدى زكريا، (منشورات وزارة) التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، الجزائر، الطبعة الثانية 1973ف.

ثانياً: المراجع

أ ـ الكتب:

1 ـ الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، د، نور سلمان، (دار العلم للملايين)، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1981ف.

2 ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، (بيروت) الطبعة الثالثة، 1969ف.

3 ـ تاريخ الأدب الجزائري، محمد بن عمرو الطّمار، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر، (لاط)، (لات).

4 ـ تاريخ الشعر العربي، أحمد قبش، (دمشق)، (لاط) 1971ف.

5 ـ الشعر الجزائري، د. صالح خرفي، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر، (لاط)، 1970ف.

6 ـ فن الأدب، توفيق الحكيم، (مكتبة الآداب)، مصر، (لاط)، (لات).

7 ـ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر)، الطبعة الثانية 1952ف.

8 ـ قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، د، عبد اللّه ركيبي، (معهد البحوث والدراسات العربية)، القاهرة، 1970ف.

9 ـ قضايا النقد الأدبي، د. بدوي طبانه، (معهد البحوث والدراسات العربية)، القاهرة، (لاط)، 1971ف.

10 ـ المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، د. نسيب نشاوي، (دمشق)، 1980ف.

11 ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، (الكتاب

الثالث)، تحقيق محمد سعيد العريان، (القاهرة)، 1963ف.
12 ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (مطبعة مصر)، 1960ف.

ب ـ الدوريات:
1 ـ مجلة «الأصالة»، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، الجزائر، السنة الثالثة، العدد 22 (عدد خاص)، (أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر)، 1974ف.
2 ـ مجلة «الثقافة»، تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة السادسة، العدد 32، (أبريل ـ مايو) 1974ف.
3 ـ مجلة «الثقافة» الجزائرية، السنة السابعة، العدد 40، (أغسطس ـ سبتمبر) 1977ف.